النشاط العمراني في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي

٤٦٠-٤٩٠ هجري / ١٠٦٧-١٠٩٧م

د. ميسون هاشم مجيد (*)

المقدمة

خضع المشرق العربي الإسلامي في تلك الفترة إلى سيطرة الخلافة العباسية والدولة الفاطمية وكانت تلك القوتين تعيش حالة الصراع فيها فاستغلت الدولة البيزنطية هذا الصراع لتمتد إلى الجزيرة والشام.

وقد أدت هذه الأوضاع القلقة إلى ظهور إمارات مستقلة في المنطقة حرصت على فرض استقلالها وحمايته حتى لو اقتضى الأمر خوض الحرب.

وبدأت الأمور تأخذ منحى آخر بدخول السلاجقة إلى مسرح الأحداث فبعد ان أخمدوا محاولة الفاطميين في السيطرة على بغداد اتجهوا إلى بلاد الشام لانتزاعها من الفاطميين وقد نجحوا في ذلك واصبحوا جند الخلافة العباسية وحماتها.

إلا ان قوة السلاجقة لم تلبث ان بدأت بالتداعي بوفاة ملكشاه وأصبحت أملاكهم لقمة سائغة بيد الطامعين وانقسمت إلى دويلات وتحكم الاتابكة في الأمراء

(*) أستاذ مساعد _ قسم التاريخ _ كلية الآداب / جامعة الموصل.

الصغار ولم يكن للأمراء الصغار ردود فعل إيجابية فبدأ الجو مناسبا للصليبيين عند دخولهم إلى بلاد الشام.

ومن ناحية أخرى والمنطقة تعيش حالة الصراع والتشتت كان العطاء الحضاري ماضيا في طريقه. وقد ساعدت حالة الانقسام على التنافس بين الأمراء على ذلك كما ان حكام السلاجقة حاولوا تقليدهم في ذلك لكسب رضا سكان المنطقة في دعم النشاط الثقافي والعمراني.

النشاط العمراني

على الرغم مما مر به المجتمع العربي الإسلامي في بلاد الشام من ظروف عصيبة وملابسات سبقت دخول الصليبيين ومهدت له إلا اننا لمسنا كثيرا من المعطيات والشواهد الإيجابية من مناحي الحياة المختلفة من هذه المنطقة العريقة بما في ذلك الأنشطة العمرانية التي حظيت بقدر من اهتمام حكام تلك البلاد سواء ان كانوا من أمرائها المحليين أم من السلاجقة وخضعت بلاد الشام كما هو معروف لسيطرة الروم فكان لذلك تأثير في طرزهم المعمارية إذا كان بين أبنيتهم الأولى وأبنية النصارى الروم تشابه كبير ولكنهم ما لبثوا ان تخلصوا من هذا التأثير وأصبحت لهم خصوصيتهم التي دلت على ذوق رفيع وكانت مختلف أبنيتهم من مدارس وقصور وجوامع في حلب ودمشق وغيرها من مدن الشام خير شاهد على ذلك[1].

وعندما خضعت المنطقة لسيطرة الفاطميين تأثرت بطرز العمارة الفاطمية التي كان من أهم سماتها الحفر على الحجر والجص والخشب

(١) النقاش: زكي، العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتب اللبناني (بيروت ـ ١٩٥٧) ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

واستمر أسلوب الحفر على الخشب في بلاد الشام حتى القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي وعندما دخلت السلاجقة شاعت زخرفة الأشكال الآدمية والحيوانية على المباني والقناطر وأبواب المدن الكبيرة مثل آمد والموصل وبغداد وقد انتقل أسلوب النحت السلجوقي إلى جميع المناطق الخاضعة لنفوذهم في بلاد الشام واسيا الصغرى ومما يلاحظ ان تشابه الزخارف في المباني الإسلامية والنصرانية واضح وضوحا كبيرا وهذا يدل على ان حكام السلاجقة استخدموا الفنانين النصارى(٢).

وقد استخدم السلاجقة سكان البلاد أنفسهم في مختلف الأقاليم الإسلامية ولذلك لم يتفرد العنصر التركي في عماراتهم وتحفهم الفنية فنشأ طراز قائم بذاته تميز بضخامة العمارات واتساعها ومتانة بنائها(٣).

كما تفاعلت الفنون في هذه الحقبة مع التقاليد الفارسية وأنتجت مبتكرات في العمارات والزخرفة والفنون التطبيقية وكانت العقود والاقباء هي الطرقة المألوفة في بناء سقوف الغرف والأواوين في المباني كافة(٤).

كان الرخام المادة الأساسية التي استخدمت في البناء في بلاد الشام وذلك لوفرته فيها ففي الرملة على سبيل المثال كانت عماراتهم وبيوتهم تبنى بالرخام وتقننوا في نقشه و تزويقه وكان فيها أنواع منه الأسود

(٢) ديماند: م. س، الفنون الإسلامية: ترجمة احمد محمد عيسى، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة (١٩٥٨). ص ٩٩- ١٠١.

(٣) حسن: زكي محمد، في الفنون الإيرانية، دار الرائد العربي (بيروت ١٩٨١م) ص ١٨.

(٤) الريحاوي: عبدالقادر، مدينة دمشق (د.ش) (دمشق ١٩٦٩م) ص ١١٣.

والأبيض والأخضر والأحمر واللامع[٥] وقد تفننوا في تشكيل النماذج المختلفة فيه وصبغه واستعماله[٦].

كما اشتهرت مباني بعلبك باستخدام الرخام بوصفه مادة أساسية في البناء أيضا[٧]. فضلا عن الرخام فقد استخدموا في بناء الأماكن المقدسة الخشب والحجارة والجص فكنيسة حمص بنيت بالحجارة اما كنيسة منبج فقد أضيفت إليها طاقات من خشب العناب[٨]. واستخدم الرخام في بناء كنيسة إنطاكية فضلا عن استخدام الجص المذهب والزجاج الملون والبلاط المجزع[٩] واستخدم النحاس في تصفيح الأبواب[١٠] كما أستخدم الصوان الأسود في البناء إذ بنيت قلعة صرخدبه[١١]. ونظرا لوفرة الكلس في المنطقة فقد استخدم في تبييض دورهم فكانت اغلب الدور في طرابلس مبيضة بالكلس[١٢].

---

(٥) ناصر خسرو علوي: سفر نامة: ترجمة يحيى الخشاب لجنة التأليف الطبعة الأولى (القاهرة ١٩٤٩)، ص ١٩.

(٦) ابن شداد: عز الدين محمد بن علي، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، المعهد الفرنسي للدراسات العربية (دمشق ١٩٥٣) ج.ق١/١١.

(٧) القزويني: زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر (بيروت ١٩٦٠) ص ١٥٦.

(٨) ابن رستة: أبو علي احمد بن عمر، الاعلاق النفسية، ضمن سلسلة دبكري (بريل ١٩٨١) ص٨٣.

(٩) نقولا زيادة: لمحات في تاريخ العرب، دار الكتاب اللبناني (بيروت ١٩٦١) ص ١٢.

(١٠) الريحاوي: مدينة دمشق، ص ١٣٠.

(١١) الظاهري: غرس الدين خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (باريس ١٩٤٠) ص ٤٦.

(١٢) السالم: عبدالعزيز، طرابلس الشام في تاريخ الإسلامي (الإسكندرية ١٩٦٧) ص ٣٦٦.

واستخدمت في الأردن مادة بيضاء تستخرج من الجبال لتبييض السقوف وتطيين السطوح[١٣]. كما تفننوا في تزويق مبانيهم فاستخدموا الحجارة الملونة في البناء لإضفاء الجمالية والذوق عليها[١٤] اما بيروت فقد استخدم أهلها في البناء الحجر الصلب الجاف والكلس ويسمى بالجير ويخلط عند البناء بالرمل الأحمر ويستخدمون الرخام للأعمدة والبلاطات ويتفننون في نقشه[١٥] وقد اتسمت الفنون العمرانية في بلاد الشام بالبراعة والذوق الفني واستعمال الأساليب الصعبة في البناء آنذاك وهذا أمر ساعدت عليه طبيعة المنطقة الجبلية فيذكر شيخ الربوة ان مدينة دمشق كانت مقسمة على ثلاثة أقسام القسم الأول أبنية ثابتة من قصور وقاعات وحمامات و أسواق ومدارس وجوامع ومساجد وما سواها القسم الثاني تحت الأرض فيها مجاري مياه على شكل شبكة كبيرة يمينا ويسارا والقسم الثالث السور وفيه وحوله الممرات والأبنية المكملة من أسواق وخانات وجوامع ومنازل للناس[١٦].

(١٣) المقدسي محمد بن محمد احمد البناء (البشاري)، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (لندن ١٩٠٩) ص ١٨٤.

(١٤) القلقشندي: احمد بن عبدالله، صبح الأعشى في صناعة الانشا: دار الكتب العلمية (بيروت ١٩٨٧)، ١٤٥/٤.

(١٥) القاياتي: محمد عبدالجواد، نفحة البشام في رحلة الشام، دار الرائد العربي (بيروت ١٩٨١. ص ٣٢-٣٣.

(١٦) شيخ الربوة: شمس الدين أبي عبدالله الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (لايبزك ١٩٢٣) ص ١٩٣.

وبالنسبة لمدينة بعلبك فهي مدينة على جبل وجميع مبانيها من الحجارة وفيها قصور فخمة بنيت على شكل مرتفع وبنائها بالحجارة بشكل متقن وجميل(١٧).

وتشتمل مدينة حلب وحماة على العمارات والمباني الكبيرة والمتضمنة السور والأبراج والقلعة والجوامع والمدارس والمساجد والمزارات والحمامات والأسواق(١٨).

ويصف ناصر خسرو بناء مدينة طرابلس التي بنيت بحيث ان ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر اما الجانب المطل على اليابسة فيه خندق عظيم وعليه باب من الحديد ومن الجانب الشرقي تقع القلعة وعليها شرفات من الحجر وقد ارتفعت هذه العمارات حتى بلغ بعضها ست طبقات(١٩). اما بيت المقدس فان المدينة بنيت أساسا على جبال شامخة وفيها أسواق وعمارات وعليها سور وقد بني المسجد على سفح الجبل فوطئ تدريجيا فأقيمت أعمدة وسقوف على الجهة القبلية التي كانت مستقلة فاعتدلت ارض المسجد(٢٠) وفي غزة من العمارات والمباني الجميلة الحسنة ما يثير العجب والإعجاب(٢١).

---

(١٧) ابن حوقل: أبو القاسم النعيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة (بيروت ١٩٧٩) ص ١٦٢، الظاهري: زبده ص ٤٧.

(١٨) الظاهري: زبده، ص ٤٩.

(١٩) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٣ ـ ١٤.

(٢٠) البغدادي: صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار المعرفة (بيروت ١٩٥٥) ٣/ ١٢٩.

(٢١) الظاهري: زبده: ص ٤٢.

وكان الأمراء السلاجقة يشملون الفنون برعايتهم في عموم مناطق نفوذهم وكان لهم دورهم في تشجيع الحركة العمرانية والاهتمام بها آنذاك إذ لم يبخل ولاة الأمر بالمال والوقت في سبيل الاهتمام بهذا الجانب الحيوي ولم يقتصر اهتمامهم على المنشآت الدفاعية والتحصينات التي تحمي مناطق نفوذهم وتؤمن ملكهم بل امتدت لتشمل جميع النواحي العمرانية سواء أكانت خدمية أم تعبدية أم دفاعية.

وقد كان لال مرداس دورهم البارز في هذا المجال وخاصة ان حلب كانت كثيرة التعرض لهجمات القوى المعادية فكان هذا مدعاة للاهتمام بالقلعة خاصة والاستمرار بتجديد أسوارها وتحصينها وحتى تكسب حصانة اكبر فانهم بنو فيها دورهم و سكنوها[٢٢] كما قاموا ببناء مسجد جامع في حلب ويذكر ابن الشحنة انه بني على أنقاض كنيسة كبيرة كانت في قلعة حلب[٢٣]. وفي العام ٤٦٩ هجري ـ ١٠٧٦م ابتدأ أتسز بعمارة قلعة دمشق بعد ان انتزعها من أيدي الفاطميين ولكنه لم يكمل هذا العمل إذ استولى تتش عليها فأنجز الأخير القلعة في العام ٤٧١ هجري ـ ١٠٧٨م واحسن عمارتها وجعلها دار للأمارة وسكنها وبنى فيها كذلك دار لولده رضوان[٢٤].

---

(٢٢) الغزي: كامل بن حسين، نهر الذهب في تاريخ حلب (حلب: د/ت) ٢/ ٤.

(٢٣) ابن الشحنة: محب الدين أبي الفضل، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب (بيروت ١٩٠٩) ص ٧٥-٧٦.

(٢٤) ابن كثير: إسماعيل بن عمر الدمشقي، البداية والنهاية في التاريخ (بيروت ١٩٧٧) ١٢ / ١١٣ ـ ١١٤، المنجد، صلاح الدين، مقالة ولاة دمشق في العهد السلجوقي، ٤ / ٥٥٧.

كما أعاد تنش عمارة المسجد الأموي في العام ٤٧٥ هجري – ١٠٨٢م ولم يرد ذكر هذا الإنجاز في كتب مؤرخينا لولا العثور على كتابات في المسجد نفسه تؤكد ذلك كما جددت المقصورة والقبة والسقف والطاقات ورخمت الأركان وكل ما يتعلق بالمصلى وجدد حائط الجامع في العام ٤٨٢ هجري – ١٠٨٩م[٢٥].

كما اهتم بنو منقذ بالعمران وبناء القصور الشامخة في مناطق نفوذهم فضلا عن اهتمامهم بالمنشآت الحربية والتحصينات ولا سيما الأسوار والأبراج.

إذ جدد ابن منقذ عمارة حصن الجسر في العام ٤٧٠ هجري – ١٠٧٧م ليتمكن من محاصرة شيزر ويقطع عنها الاتصال بالروم[٢٦] ويشير ابن القلانسي إلى المساجد الكثيرة في شيزر وهذه بلا شك كانت من اهتمامات بني منقذ أيضا[٢٧]. وقد قام أق سنقر في العام ٤٨٢ هجري – ١٠٨٩م بعمارة منارة حلب ونقش اسمه عليها[٢٨]. ويذكر ابن الشحنة ان هذه المنارة أسسها في جامع حلب سابق بن محمود المرداسي وقد بلغ أساسها إلى الماء ويبلغ طول هذه المنارة سبعة وتسعين ذراعا[٢٩].

---

(٢٥) المنجد المرجع السابق ص – ٥٥٧.

(٢٦) ابن العديم: كمال الدين عمر بن هبة الله، زبده حلب في تاريخ حلب (بيروت ١٩٥١) ٢/ ٥٦.

(٢٧) ابن القلانسي: أبو يعلي حمزة، ذيل تاريخ دمشق: مطبعة الآباء اليسوعيين (بيروت ١٩٠٨) ص ١٧٧.

(٢٨) ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم، مفرح الكروب في أخبار بني أيوب: تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٣) ١/ ٢٠، ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢ / ١٣٥.

(٢٩) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٦٦ – ٦٧.

وقد أمر اق سنقر في العام ٤٨٢ هجري – ١٠٨٩م ببناء مشهد قرنبيا[٣٠] ووقف عليه الوقوف فضلا عن أمره بتجديد مشهد الدكة[٣١].[٣٢]

وفي العام ٤٨٢ هجري – ١٠٨٥م قام سليمان بن قتلمش أمير سلاجقة الروم بإعادة قلعة الشريف بحلب وترميم ما تهدم منها وإعادتها إلى ما كانت عليه بسبب الحرب التي قامت بينه وبين مسلم بن قريش[٣٣].

وفي العام ٤٧٩ هجري – ١٠٨٦م عمر أيضا قلعة قنسرين وسكنها[٣٤].

كما أمر السلطان ملكشاه في العام ٤٨٤ هجري – ١٠٩١م بإعادة اعمار كنيسة السيدة بانطاكيا والأبراج التي في السور والتي كانت قد تهدمت نتيجة الزلزال الذي وقع فيها[٣٥]. وقد كان الاهتمام بالمؤسسات الدفاعية عند الأمراء والحكام ملحوظا بشكل خاص وحظيت هذه المؤسسات لديهم بالرعاية إذا ان موقع الشام قريبا من الروم وتعرضها لتجاوزاتهم وأطماعهم أدى إلى الإمعان في التحصين وبناء القلاع والسور فكانت المدن الساحلية من اللاذقية إلى بانياس إلى طرطوس وطرابلس حتى صور وعكا وعسقلان محصنة بالأسوار فضلا عن وجود الجبال والقلاع ولهذا تعد القلاع والأبراج والأسوار من ابرز سمات العمران في المنطقة وقد حظيت هذه

(٣٠) لم أجد لهذا الموقع تعريفا في كتب الجغرافية.

(٣١) الدكة موضع بظاهر دمشق في الغوطة، الحموي: معجم البلدان، ٢ / ٤٥٩.

(٣٢) ابن العديم: البغية، ص ٩٨.

(٣٣) ابن القلانسي: ذيل، ص ١١٨.

(٣٤) ابن العديم: زبده، ٢ / ٩٦.

(٣٥) ابن القلانسي: ذيل، ص ١٢١.

المنشآت باهتمام الأمراء المحليين والأمراء السلاجقة لتحصينها ضد الأخطار الخارجية.

وكانت هذه القلاع والأبراج على درجة من المتانة والحصانة لمواجهة الأخطار فعندما قدم السلطان الب ارسلان وحاصر حلب في العام ٤٦٣هجري - ١٠٧٠م نصب على برج الغنم منجنيقا واخذ يضرب البرج الحصين دون جدوى وكانت العامة تدرك مقدار حصانة هذا البرج فأخذت تستهزى بمحاولة هدمه فربطوه بشقة أطلس وهذا يعني ان البرج قد صدع رأسه من ضرب المنجنيق فقط[٣٦] وتعد القلعة من أهم المركز الدفاعية العسكرية للمدينة[٣٧] وهي بمثابة مدينة متكاملة تضم جميع المؤسسات الحيوية في الدولة إذ تكون فيها دار الأمارة وقصور الأمراء فقد ضمت قلعة دمشق التي بناها تتش في العام ٤٦٩ هجري - ١٠٧٦م دار الأمارة ومقر حكمه فضلا عن بناء دار لولده رضوان فيها[٣٨] وهذا أمر طبيعي لان مركز الحكم لابد من ان يتمتع بالحصانة التي يمكنه من الدفاع والمواجهة لابد من ان تكون القلعة مركز للأمارة ولا سيما ان القلاع الشامية كانت حصينة بعامة. ونظرا لكونها مركزا للدفاع فانها تعد مستودع و مخزن للأسلحة والعتاد[٣٩] فضلا عن وجود المساجد والجوامع والأسواق والحمامات والخانات فيها[٤٠].

---

(٣٦) ابن العديم: البغية، ص ١٧.

(٣٧) سميل: س، الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم (بيروت ١٩٨٢م) ص ٥٩.

(٣٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ٢/ ١١٣ ـ ١١٤.

(٣٩) ابن العديم: زبده، ٢/ ٧٠.

(٤٠) البدري: أبو البقاء عبدالله محمد الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام (بيروت ١٩٨٠م)، ص ٦٢.

وبالنظر لأهمية القلعة ولحاجات المنطقة الدفاعية لها فلم تخل أي مدينة من مدن الشام منها مثل قلاع بانياس وشيزر وصرخد والبيرة وبجانب القلاع كانت الأسوار أيضا والتي تشكل عاملا دفاعيا مهما آخر وكانت تبنى لأغراض دفاعية أيضا.

وقد اخذوا نمط بناء الأسوار عن الرومان وكان يتم تشييدها بحجر قوي وبشكل منظم ومن أهم الأسوار القديمة في المنطقة سور دمشق الذي أصلحه نور الدين وله سبعة أبواب فبنى منارة فوق كل باب من هذه الأبواب[٤١].

اما سور إنطاكية فهو من الأسوار الحصينة أيضا وعليه تسعون برجا تقريبا[٤٢] وفي طرابلس سور صخري منيع لحمايتها[٤٣] ويتصف سور حماة بمتانة بنائه. و بظهره أقيمت الأسواق والخانات[٤٤] ولحلب سور متين بني بحجارة بيض على درجة من الدقة وله ستة أبواب[٤٥]. اما مدينة صور فتتمتع بالحصانة والمناعة إذ شيد لها حيطان منيعة فضلا عن الأبراج ويحيط بها السور من ثلاثة جوانب و الجانب الآخر معقود بالجص والسفن تدخل تحت السور وترسو فيه[٤٦].

---

(41) Elsse FF. Nurad Din: v. 111 p 708-710.

(٤٢) ابن القلانسي: ذيل ص ١٢١، ابن تغري بردي، النجوم، ٥/ ١٣٢.

(٤٣) الحميري: محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار (بيروت ١٩٨٤م) ص ٣٩٠

(٤٤) البغدادي: مراصد الاطلاع، ١/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ١٤٥.

(٤٥) الحميري: الروض، ص ١٩٦، دائرة المعارف الإسلامية: مادة حلب، ص ١٣٥.

(٤٦) ابن جبير: رحلة، ص ٢٧٧، ابن بطوطة: رحلة، ص ٦٢.

فضلا عن هذه المنشآت الدفاعية فقد وجدت منشآت خدمية أيضا إذ اهتموا بتنظيم الأسواق وترتيبها ترتيبا يؤمن الحركة التجارية فيها ويلفت النظر لجماليتها فالأسواق وطرقها فسيحة ومتسعة والدكاكين والحوانيت كبيرة وأعالي الأسواق مسقف بالخشب وتتصل بانتظام بعضها مع البعض الآخر(٤٧).

وبعض هذه الأسواق تضاء ليلا ونهارا بالقناديل كما انها كانت عالية ومتسعة والحوانيت والدكاكين منظمة على طرفي السوق(٤٨).

كما ان ظاهرة الشارع التجاري كانت معروفة في المراكز التجارية ففي حلب يمكن ملاحظة ان جميع المحلات التجارية متجمعة في مكان واحد(٤٩).

وقد وجدت القيسارية في المدن الرئيسية من بلاد الشام مثل حلب ودمشق ويتم تشييد القيسارية على ارض مستطيلة أو مربعة ولها فناء مفتوح وبها أبواب محكمة ويضم هذا الفناء الفسيح ورشا للحرفيين وأصحاب الورش التقليدية مثل صناعة السجاد والبضائع الكمالية الأخرى(٥٠).

كانت أسواق دمشق من احسن الأسواق انتظاما وهي مرتفعة كالفنادق ولها أبواب حديد مثل البيوت ولها أقفال حديدية تنفرد كل قيسارية بها وفي أحد أسواقها الكبيرة بيت صغير جعل مصلى للتجار(٥١).

---

(٤٧) ابن جبير: رحلة، ص ٢٢٣.

(٤٨) الشيزري: عبدالرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة (القاهرة: ١٩٥٦) ص ١١.

(49)Elsseff Nurad Din v. 111, p. 855.

(50)Elsseff Nurad Din v. 111, p. 858.

(٥١) ابن جبير: رحلة، ص ٢٦١.

وكانت أسواق عسقلان مفروشة بالرخام[٥٢] وأسواق حمص ذوات شوارع عريضة وفسيحة[٥٣]. وقد جاء الاهتمام بالأسواق وتنظيمها نتيجة حتمية لارتباط بلاد الشام بالتجارة بحكم الموقع الجغرافي حيث تزدحم الحركة التجارية والتبادل بين المدن بعضها مع البعض الآخر ومع خارج البلاد أيضا. ويصف ابن جبير سوق حلب بان حوانيتها من الخشب الدقيق الصنع تتخلل ذلك شرف خشبية منقوشة نقشا بديعا[٥٤]. وتمتاز أسواق المنطقة بالتخصص في بيع السلع فهناك سوق القطانين وسوق المشاطين والعطارين والخشابين والسراجين والإسكافيين وغيرها[٥٥].

وهناك سوق متخصص في بيع الحبوب يسمى سوق الحنطة ويعد المركز الرئيس لتسويق الحنطة وتجد فيه جميع أنواع الحبوب والعطاريات والتوابل وفيه ثلاثة قيساريات الأولى قيسارية السلطان والثانية قيسارية الوزير اما الثالثة فتسمى بالقيسارية الفخرية وهناك سوق متخصص ببيع الأغنام يعرف بسوق الغنم[٥٦].

ولا بد من الاهتمام بالطرق وتبليطها في داخل المدينة نفسها وخارجها إذ ترتبط مع غيرها من المدن بطرق مبلطة وكانت طرق المدينة الداخلية مبلطة بالحجارة ومفروشة بها[٥٧].

---

(٥٢) الحميري: الروض المعطار، ص ٤٢٠.

(٥٣) ابن بطوطة: رحلة، ص ٦٥.

(٥٤) ابن جبير: رحلة، ص ٢٢٧.

(٥٥) الحميري: الروض، ص ٢٦٨.

(56) Elsseff Nurad Din v. 11, p. 865, 869.

(٥٧) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٢، الاصطخري: المسالك والممالك ص ٤٦، القزويني: آثار البلاد ص ١٦٠.

ومن المنشآت الخدمية الأخرى القناطر إذ يوجد في صيدا الحصن يصل إليه الماء من القناطر كما توجد في صور قنطرة على درجة كبيرة من الإتقان من قوس واحد(٥٨). كما بنيت الأحواض لجمع ماء المطر وخزنه ففي الرملة يوجد في كل منزل حوض وفي وسط مسجد المدينة أحواض للغرض نفسه(٥٩). وتوجد الطواحين في المدن لغرض طحن الحبوب كالحنطة والشعير(٦٠).

ومن المؤسسات الخدمية المهمة أيضا الحمامات وقد اشتهرت المنطقة بعامة بكثرتها وذلك لاشتهارها بصناعة الصابون والعطور فضلا عن ان الدين الإسلامي كما هو معروف يؤكد نظافة المسلم وطهارته وكذلك لارتباطه بالوضوء كما ان مصادر المياه فيها متوفرة توفرا دائما مما أدى إلى انتشار الحمامات فيها وأخذت هذه الحمامات مظهرا إسلاميا واجتماعيا وكثر عددها.

وقد تجاوزت الحمامات الموجودة في دمشق الثلاثة والخمسين حماما حسب ما أورده ابن عساكر(٦١) اما ابن جبير فيذكر بانها مئة حمام(٦٢).

وقد انتشرت الحمامات في جميع أنحاء المنطقة فلا تخلو مدينة أو قرية منها وقسم منها كان حمامات صحية لغرض الاستشفاء.

ويذكر القزويني ان في انطاكيا حمامات طيبة للغاية مياهها عذبة ويستخدم الآس بوصفه وقود(٦٣).

---

(٥٨) القرماني: أخبار الدول ص ٤٥٩.

(٥٩) ناصر خسرو: سفر نامة ص ١٩.

(٦٠) المصدر نفسه ص ٣٥، شيخ الربوة: نخبة الدهر ص ١٩٣.

(٦١) ابن عساكر: أبو القاسم علي بن هبة الله، تاريخ دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، (دمشق ١٩٥١) ٢/ ٤٩٤.

(٦٢) ابن جبر: رحلة، ص ٢٦١.

(٦٣) القزويني: آثار البلد، ص ١٥٠.

ومن اشهر الحمامات في دمشق حمام السلارية التي بناها السلار بختيار شحنة دمشق(٦٤).

وتوجد في الرملة حمامات كثيرة وأنيقة أيضا فضلا عن ذلك توجد الفنادق المنظمة لاستقبال الغرباء باستمرار(٦٥).

ومن العمارات الخدمية أيضا المدارس وبالرغم من محدوديتها بنمطها المستقل في تلك الحقبة ولكنها لها نمط خاص في البناء مستمد مما عرف من طرز البناء لهذه المؤسسات في العراق وإيران وتركز على بناء الاواوين التي تطل على فناء مفتوح ويمثل المصلى التابع للمدرسة الجهة الجنوبية من البناء ويكون مصمما على شكل قاعدة مستطيلة ويحتوي أيضا على غرف صغيرة لسكن الطلاب موزعة على طابقين(٦٦).

ويذكر الحميري انه كان في مدينة حلب جامع يتصل من الجانب الغربي له بمدرسة اتبع في بنائها الإتقان والبراعة التي بنى بها الجامع فضلا عن وجود أربع أو خمس مدارس أخرى(٦٧). وتوجد في مدن الشام الأخرى المدارس العديدة التي حظيت بالاهتمام والرعاية أيضا(٦٨).

اما العمارة السكنية المتمثلة بالقصور والدور السكنية فالمعلومات عنها شحيحة ومن اشهر الدور التي بنيت للخاصة في هذه الحقبة قصر الملك رضوان

---

(٦٤) ابن عساكر: تاريخ، ٢ / ٤٩٤.

(٦٥) المقدسي: احسن التقاسيم، ص ١٦٤.

(٦٦) الريحاوي: مدينة دمشق، ص ١١٣.

(٦٧) الحميري: الروض المعطار ص ١٩٧.

(٦٨) الظاهري: زبدة، ص ٤٢ و ٤٨.

الذي بناه له والده تتش في قلعة دمشق في العام ٤٦٩ هجري - ١٠٧٦م[٦٩]. وقصر ولده الثاني دقاق في دمشق أيضا[٧٠].

ولكن المصادر لم تشر إلى الملامح العمرانية والفنية لهذه القصور كما انها لم تزود بمعلومات كافية عن قصور الأغنياء ودور العامة وإشاراتها إليها فيها الكثير من التعميم فقد بنيت دور العامة ومنزلها في طرابلس بالجص الأبيض[٧١].

وكانت دور العامة في حمص حسنة وجميلة[٧٢] واستعمل العامة في بعلبك الرخام في تزين قصورهم[٧٣]. كما كانت الدور السكنية في دمشق كثيرة العدد صغيرة المساحة وهذا واضح من خلال امتناع عماد الدين زنكي عن دخولها في العام ٥٤٣ هجري /١١٣٩م نظرا لضيق شوارعها وأزقتها فهو يؤكد (ان البلد ضبي ضيق الطرق والشوارع ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقة..)[٧٤].

ولكنهم استخدموا الأساليب الفنية في إيصال المياه إليها إذ كانت المياه تتدفق من منازلهم[٧٥] اما أهل الرملة فقد كانوا يبنون في منازلهم الأحواض لجمع مياه الأمطار واستخدامها فيوجد في كل منزل حوض لهذا الغرض[٧٦].

---

(٦٩) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢ / ١١٣ _ ١١٤.

(٧٠) ابن القلانسي: ذيل، ص ٢٦٤.

(٧١) عبدالعزيز سالم: طرابلس الشام، ص ٣٧٩.

(٧٢) القرماني: أخبار الدول، ص ٤٠٦.

(٧٣) القزويني: آثار البلاد، ص ١٥٦.

(٧٤) ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل، (القاهرة ١٩٦٣)، ص ٥٨.

(٧٥) البغدادي: مراصد، ٢ / ٥٣٤.

(٧٦) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٩.

اما المنشآت التعبدية من جوامع ومساجد وكنائس وربط وغيرها فقد اشتهرت بلاد الشام بكثرتها فلم تكن تخلو مدينة أو قرية من جامع أو مسجد أو كنيسة أو مشهد وكذلك كثرت فيها الربط والخوانق والزوايا.

والمسجد الجامع لا يختلف كثيرا في نظام بنائه عن سائر أنحاء العالم الإسلامي فهو أساس التنظيم العمراني والاجتماعي للمدينة والمركز الديني الذي تلتقي حوله بقية المراكز العمرانية(٧٧). ومن ابرز ما يجب الوقوف عنده من هذه المعالم العمرانية الجامع الأموي الذي يعد من اعظم ما أنشئ من جوامع في العالم الإسلامي ولسنا هنا بصدد الإطالة في وصف هذا المعلم بالتفصيل الذي اسهبت فيه كثير من المؤلفات التاريخية ولكن لابد من ذكر عدد من الخصائص العمرانية والفنية التي مازته وأعطته الخصوصية واشتهرت به بلاد الشام.

فيذكر الثعالبي ان من خصائص الشام مسجد دمشق الذي يعد من عجائب الدنيا في نقوشه وتزويقه وزخارفه(٧٨).

وقد جعلت أرضه من الرخام وحجارته من الذهب ورصعت جدرانه بالفضة وفي السقف حصن رصاص محكم ويصل إليه الماء من قنوات من الرصاص وإذا أريد غسل المسجد فتح الماء وغسل المسجد بسهولة(٧٩) وكانت السقوف مذهبة ومبطنة بالجملونات(٨٠) وجدرانه مطعمة بالفصوص المذهبة والملونة(٨١).

---

(٧٧) محمد عبدالعزيز الخليلي: مقالة الحياة الاجتماعية في عصر صلاح الدين، المجلة العربية، للثقافة العدد ٢٦ السنة ١٩٩٤، ص ٤٤.

(٧٨) الثعالبي: لطائف، ص ١٥٨.

(٧٩) الادريسي: نزهة المشتاق، ص ١٣ ـ ١٤.

(٨٠) الجملون بناء على هيئة سنام الجمل، البستاني: البستان، ١/ ٤٠٥.

(٨١) الحموي معجم البلدان، ٢/ ٤٦٥، شيخ الربوة نخبة الدهر، ص ١٩٣.

ويعد المسجد الأموي مشاركا للمسجد النبوي الشريف بوصفه النموذج الذي يسير عليه المسلمون في تنفيذ الجوامع والمساجد الكبرى ذوات الصحن المكشوف الذي تحيط به الأروقة وقد كان لجامع دمشق اثر كبير في العمارة الإسلامية على الرغم من ما أصابه من عواد ولكن عمارته المحكمة سلمت منها(٨٢).

ففي النصف من شعبان في العام ٤٦١ هجري / ١٠٦٨م احترق الجامع وزالت سقوفه المذهبة ونقوشه الجميلة ولكن هذا لم يؤثر تأثيرا كبيرا في معالمه الباقية(٨٣).

ومن الطبيعي ان لا تخلو مدينة من مدن الشام من المساجد والجوامع والربط والزوايا فقد اهتم بنوا مرداس ببناء الجوامع والمساجد بالرغم من ما كان يعترض مدينة حلب من أخطار تجعلهم يهتمون بإنشاء الأسوار والأبراج لأغرض الحماية و التحصين.

ويعد المسجد الذي بني في عهدهم ويسمى باسم السيدة بنت وتاب النميري والدة محمود المرداسي أحد أهم هذه المساجد وقد دفنت فيه(٨٤) كذلك بني في دمشق مسجد بالقرب من قبة الطواويس بنته الأميرة صفوة الملك أم الأمير دقاق(٨٥).

(٨٢) عاشور: دراسات في تاريخ الحضارة، ص ٤٨٦ ـ ٤٨٩.

(٨٣) ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار، ١/ ١٩٨ ـ ١٩٩، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٢١.

(٨٤) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٠٤.

(٨٥) ابن عساكر: تاريخ، ٢/ ٨٩.

واهتم بنو منقذ في شيزر ببناء الجوامع أيضا فحظيت بعنايتهم واهتمامهم ومن اشهر الجوامع فيها جامع شيزر الذي يقع في داخل المدينة وكان يتسع لأعداد كبيرة من المصلين(٨٦).

وفي مدينة الرملة العديد من الجوامع والمزارات ومنها الجامع الأبيض الذي يعد من الجوامع الفريدة في بنائه وفيه قبور عدد من الصحابة(٨٧).

وقد تميزت الكنائس الموجودة في بلاد الشام بطرزها المعمارية الجميلة مثل كنيسة حمص وكنيسة منبج(٨٨) وقد استخدم التصوير والتزويق والطلمسات(٨٩) والقناديل التي استعملت في تزيين تلك الكنائس(٩٠).

وقد بنيت كنيسة منبج من خشب وزينت بطاقات من خشب العناب وبنيت كنيسة إنطاكية بالرخام المزوق اما كنيسة حمص فبنيت بالحجارة بناء يضفي عليها البهاء والروعة(٩١).

وتوجد في مدن الشام كثير من الأماكن المقدسة والمباركة وأماكن العبادة إذ انتشرت في معظمها الربط والخوانق والزوايا مثل بعبك وحماه وحمص(٩٢) كما توجد فيها المزارات أيضا مثل مزارات الرملة وحماه(٩٣).

---

(٨٦) ابن القلانسي: ذيل، ص ١٧٧.

(٨٧) الظاهري: زبده، ص ٤٢.

(٨٨) ابن رسته: الاعلاق النفسية، ص ٨٣.

(٨٩) الطلاسم: خطوط وأعداد يزعم كاتبها انه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية وهو ضرب من السحر. البستاني: البستان. ٢/ ٣٦١.

(٩٠) الثعالبي: لطائف، ص ١٥٨.

(٩١) ابن رسته: الاعلاق، ص ٨٣.

(٩٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ١١٣و ١٤٥ الظاهري: زبده، ص ٤٧.

(٩٣) الظاهري: زبده، ٤٢ و ٤٩.

ومن اشهر المشاهد في بلاد الشام مشهد الخليل الذي يستقطب الزوار إليه وتوجد على سطح المشهد حجرات لاستقبالهم واستقبال الضيوف الوافدين وقد وقف عليها أوقاف كثيرة من القرى ومستغلات بيت المقدس[٩٤] وهناك كثير من المشاهد المقدسة في دمشق أيضا[٩٥].

ومن العمائر الخدمية أيضا المقابر وتقع في العادة عند مداخل المدن ومن اشهر هذه المقابر مقبرة الباب الصغير بدمشق التي كان يدفن فيها الخاصة ففيها قبر السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله عنه وقبر معاوية بن أبي سفيان[٩٦].

وكان للخاصة مقابر مستقلة عن العامة وفي الغالب تلحق بالجوامع وقد يدفن الأمير في بيته وقد خصصت والدة الأمير دقاق مكانا مطلا على الميدان الأخضر لدفن ولدها وأقامت عليه قبة ضخمة[٩٧] هذه جملة من الأمور ذكرت بالجانب العمراني فضلا عن الكثير منها امتدت إليها عوادي الزمن بالخراب والفناء ما لحقه من أضرار نتيجة الحروب وغيرها.

(٩٤) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ٣٥.

(٩٥) شيخ الربوة: نخبة، ص ١٩٣.

(٩٦) المنجد: مقالة ولاة دمشق، ص ٥٥٧.

(٩٧) ابن القلانسي: ذيل، ص ٢٠١.